التَّعدُّديَّةُ والحُرِّيَّةُ الدِّينيَّةُ

منير أنيس

لا شكَّ أن التنوع هو سمة من سمات الخلق؛ فلقد شاء اللَّه أن تكون الخليقةُ متنوعةً، وأن يكون الجنس البشري متنوعًا أيضًا.

ولقد استمر هذا التَّنوعُ في نسل آدم حتى صار هذا النسل أممًا وشعوبًا متنوعةً، فيها من عبَدَ اللَّه الواحدَ، وفيها من بحث عن آلهةٍ أخرى، وهذا أدَّى إلى التعدد الديني الذى جاء نتيجةَ بحث الإنسان عن اللَّه، وعن القوة الخارقة التي تقف خلفَ الخليقة والظواهر الطبيعية التي تحدث، فكما قال القديس أغسطينوس: «يا اللَّه لقد خلقتنا لذاتك ونفوسنا لن تجد راحتها إلا فيك» ، فإن الإنسان دائم البحث عن اللَّه.

ونحن ندرك كأبناء إبراهيمَ أن اللَّه أحبَّ ومازال يحبُّ كلَّ الأمم، فدعوته لإبراهيم تظهر ذلك بوضوح حيث قال لإبراهيم: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. (٢) فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ».

وفى هذه الآيات نجد أن اللَّه لا يَعد ببركةٍ لإبراهيم وعائلتِه فحسب، وإنما وعَدَ ببركةٍ لجميع قبائل الأرض.

وللأسف لم يدرك شعبُ إسرائيلَ حقيقةَ أن كلَّ شعوب الأرض -وليست فقط إسرائيل- هى خليقة اللَّه التي أحبها وقصَدَ أن يباركها من خلال أبناء إبراهيمَ، فاختار شعبَ إسرائيل وأعلن عن ذاته ووحدانيته حتى يعبده هذا الشعب فيكون مثالًا وبركةً لكلِّ قبائلِ وشعوبِ الأرضِ، إلا أن شعبَ إسرائيل نظر إلى ذاتِه كشعبِ اللَّهِ المختارِ، وبكبرياء انعزلَ عن باقي الشعوبِ وحاربَها، وفى أحيانٍ أخرى ابتعد عن اللَّه وعبَدَ آلهةَ الأمم، وبالرغم من أن اللَّه قد تكلم مع هذا الشعب مرارًا من خلال أنبياء العهد القديم إلا أنه ابتعد عن اللَّه وقصدِه، لذلك كتب أشعياءُ النبي «(٣) الثَّوْرُ يَعْرِفُ قَانِيَهُ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ، أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يَعْرِفُ. شَعْبِي لا يَفْهَمُ»

واليوم ونحن شعوبٌ متنوعةٌ لها أديانٌ متعددةٌ علينا أن نسأل كيف يتحقق عهدُ اللَّه لإبراهيمَ من خلال أولادِه أي من خلالِنا؟ وكيف نتبارك ويبارك بعضُنا البعضَ بالرغم من التنوع والتعدد الذى نعيشُه اليوم؟

لا شكَّ أن التعددية الدينيةَ أصبحت واقعًا لا يمكن تجاهلُه اليوم، فلم يعد هناك شعبٌ يدين بديانة واحدةٍ، ويعيش في دولةٍ واحدةٍ، فلقد ساعد تطورُ وسائل

الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ على وجود حركةٍ مستمرةٍ من التنقُّل بين شعوبِ الأرض.

فاليوم نجد الملايين من العربِ يعيشون في العالَمِ الغربيِّ، ونجدُ الملايين من الصينيين يسكنون في كلِّ دولِ العالم، والملايين من الهنود والباكستانيين يعيشون في دول الخليجِ العربيِّ وأوروبا الغربية، كلُّ هؤلاء يتَّبعون دياناتٍ وعقائدَ متنوعة، وحتى إن لم ينتقل الناسُ من مكان إلى آخرَ فإنَّنا ندرك وجود دياناتٍ ومعتقداتٍ تختلف عما نؤمن به.

كلُّ هذا أدى إلى أنَّ الغالبيةَ العظمى من المجتمعات في العالم أصبحت مجتمعاتٍ ذات تعدديةٍ دينيةٍ، ولا شكَّ أن هذه التعددية الدينية لها آثار متنوعة، فمن الممكن أن تشَكِّلَ تهديدًا للمجتمعِ بسبب الصراعات التي يمكن أن تَحدثَ بين أتباعِ الدياناتِ، ويمكن أن تكون غنًى وثراءً للمجتمع نظرًا للتنوع الحضاريِّ الذى يجلبُه أتباعُ الدياناتِ المختلفةِ للدولة التي يعيشون فيها .

ولهذا فنحن نجدُ أن استجابةَ الحكوماتِ أو المجتمعاتِ لهذه التعددية يختلف من مجتمعٍ لآخرَ، وهذه الاستجابات تحدِّدُ مقدارَ الحريةِ الدينيةِ المتاحة في كلِّ مجتمعٍ.

وفيما يلى أمثلة للاستجابات المتنوعة للتعددية الدينية:

١- هناك بعضُ الحكوماتِ والمجتمعاتِ تتجاهلُ ولا تعترفُ بالتعدديةِ الدينيةِ، وهذا يؤدي إلى حرمان أتباعِ الدياناتِ الأقل عددًا من الأغلبية الدينية في ذلك المجتمع من ممارسةِ شعائرهم ومعتقداتهم، وأيضًا من المشاركةِ في بناء المجتمعِ من خلال الوظائفِ القياديةِ والمؤثرة.

٢- وهناك بعض الحكومات والمجتمعات تعترفُ بوجود التعدديةِ الدينيةِ لكن تعتبرُ أن ديانةَ الأغلبيةِ هي دينُ النظام، وتمنح أتباعَ الدياناتِ الأخرى مساحاتٍ محدودةً لممارسةِ شعائرِهم ومعتقداتِهم، كما تسنُّ لهم قوانينَ خاصةً بهم وهذا له جوانبه الإيجابية والسلبية.

٣- هناك حكومات ومجتمعات تعترف بالتعددية وتؤكد على حق المواطنة بصرف النظر عن تعداد أتباع الديانات فالجميع سواسية أمام القانون، ومتساوون في الحقوق والواجبات، وهذه غالبًا ما تكون دولًا مدنيةً تفصل بين الدين والدولة إلا أنها غالبًا ما تكون هذه المجتمعات مشجعةً للعلمانية المتطرفة.

إن الاعترافَ بالتعددية الدينية وإتاحةَ الحرية لكلِّ أتباعِ الديانات أن يعتقدوا كما يشاءوا يخلق مناخًا يعيش فيه الجميعُ فى تناغمٍ وانسجامٍ، وهذا لا يعني الموافقةَ على هذه العقائد أو التهاون في حماية العقيدة والدين؛ بل إن هذا

الاعترافَ بالتعدديةِ يساعدُنا أن نتداخلَ مع بعضِنا البعض ونتحاورَ حتى نتفهم إيمان الآخرين، ونعرف كيف نتعاون معًا لنحققَ انسجامَ المجتمعِ.

علينا نحن الذين نؤمن بالله الواحد إدراك أنَّ إلهنا قادرٌ على أن يحميَ الحقَّ؛ فلسْنا مسئولِين عن حمايةِ الحق الذى نؤمن به؛ فالله وحدَه قادرٌ على أن يفعل ذلك، فحرمان البعض من الحرية الدينية كردِّ فعلٍ للتعددية الدينية يؤدي إلى انهيارٍ للمجتمعات بسبب عدم الاحترام والإهانة المتبادلة بين أبناء المجتمع، وعندما يحاولُ البعضُ أن يحميَ الدينَ والحقَّ باستخدام القوة فإن هذا يؤدي إلى الحروب مثلما حدَثَ في الحروب الدينية في أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت في القرنيْنِ السادس عشر والسابع عشر، ويؤدي أيضًا إلى العمليات الإرهابيةِ التي تجري باسم الدين، ولحماية الحق كما يحدث في عالمنا اليوم.

ولا شكَّ أن قبولَ التعدديةِ الدينيةِ يقودُنا إلى أماكنَ صعبةٍ، خاصة بين أتباع الأديان التي تشمل الدعوة لها أو الكرازة بها مثل الإسلام والمسيحية، فالإيمان بهما يدفعُ المسلمين والمسيحين إلى دعوةِ غيرهم للإيمان بما يؤمنون به، وهذا يؤدى إلى تضاربٍ بين الرغبة في التعاون والحوار وبين الدعوة أو الكرازة، فما الحل؟

في رأيي، أن الحلَّ هو أن نتأمَّلَ قليلًا فيما يقوله المؤذن: «اللَّه أكبر»؛ فاللَّه أكبر منَّا جميعًا، وعلينا أن نثقَ أن اللَّه يهدي من يشاء، فنحن لا نستطيع أن نجذبَ الآخرين لإيماننا لكن اللَّه وحده يستطيع.

والدولُ التي تقبلُ التعدديةَ الدينيةَ تؤكدُ في قوانينها على حريةِ الاعتقاد، ونحن كمسيحيين وكمسلمين نؤمن أن اللَّه وحدَه هو الديَّانُ وفاحصُ القلوب كما قال: «أَنَا الرَّبُّ فَاحِصُ الْقَلْبِ مُخْتَبِرُ الْكُلَى لأُعْطِيَ كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ طُرُقِهِ، حَسَبَ ثَمَرِ أَعْمَالِهِ» لذلك يجب على كل المسلمين والمسيحيين أن يكون لهم الحرية في مشاركةِ إيمانِهم بدونِ أن يشعرَ أيٌّ منهم بالتهديد من جرَّاءِ ذلك، فإذا كان كلٌّ منَّا يؤمنُ أنَّ إلهَنا هو اللَّه الواحدُ الحقُّ فيجب علينا أن نثق أن اللَّه سوف يحمي الحق في قلوب المؤمنين.

ولاشكَّ أن للقادة الدَّيِّنيين دورًا محوريًّا في تشجيعِ الشعوبِ والحكوماتِ لقبول التعددية الدينية الصحيحة بما ينطوي ذلك على ضمان الحرية الدينية لأتباع الديانات.

إنَّ الاختلافَ في العقيدة لا يمنع الاحترامَ المتبادَلَ، وإن إعطاءَ مساحة للآخر أن يمارس شعائرَه الدينية بحريةٍ وبدون قيود هو علامةٌ للكرمِ ونضجِ التقوى.

إن هذا الدور لا يمكن أن يلعبَه إلا العالِمُ بأمورِ دينِه، والواثقُ في إيمانِه لأن مثلَ هذا العالِمُ الواثقُ لا يشعرُ بالتهديد من إيمان الآخرين.

أخيرًا أودُّ أن أؤكدَ على ما سبق أن ذكرتُه، وهو أن ثقتَنا في عظمةِ وقدرةِ اللَّه تساعدُنا أن نقبل التعدديةَ دون أن نشعر بالتهديد أو الخوف ودون أن نأخذ مكانه كديَّان عادلٍ.

* * *